المنطق الوجدانى والعقيدة

للأستاذ ســـيد قطب

— ٢ —

آلبداهة والبصيرة طريق الإيمان ، والمنطق الوجدانى أداته فى القرآن ، كما أقول أنا ؟ أم الذهن المجرد طريقه ، والمنطق الذهنى أداته ، كما يقول الأستاذ عبد المنعم خلاف ؟

أحب قبل أن أمضى فى البحث أن أقرر : أنه لا يجوز أن يجرفنا الجدل إلى تقسيمات جدلية حاسمة لطرق الإيمان وأدواته فى النفس البشرية ؛ فإننا لن نجد حالة نفسية واحدة تتم بهذه الساذجة فى التقسيم . وأبسط الحالات النفسية الساذجة معقد كل التعقيد ، ولا بد فيه من شتى الاحتمالات

وليست المسألة بينى وبين الأستاذ عبد المنعم قضية جدلية على طريقة المناظرات ؛ إنما هى حقيقة نود تجليتها . وإنه ليسرنى من غير شك أن ألتقى بالصديق فى الطريق

لذلك أحب — قبل كل تعليق — أن أستعرض ما قلته أنا فى كتابى « التصوير الفنى فى القرآن » عن المنطق الوجدانى ؛ وما قاله الأستاذ عبد المنعم فى مقاله الأخير عن « المنطق الذهنى » ، فمن يدرى ، فلعلنا متفقان فى جوهر الموضوع ولبه ، وإن اختلفنا فى التعليل وتقرير المصطلحات ، وإن يكن يبدو لى أن الخلاف فى أساسه خلاف طبيعتين وطريقتين فى الإحساس !

* * *

استغرق فصل « المنطق الوجدانى » من كتابى عشر صفحات ، ووردت فيه هذه الفقرات فى مواضع متفرقة :

١ — « لقد جاء القرآن لينشئ عقيدة ضخمة — عقيدة التوحيد — بين قوم يشركون بالله آلهة أخرى ، ويكون من العجب العاجب عندهم أن يقول لهم قائل : إن لله واحد : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؛ إن هذا لشىء عُجاب ! وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يُراد ، ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ! »

٢ — « كانت وظيفة القرآن إذن أن ينشئ هذه العقيدة الخالصة المجردة . وموطن العقيدة الخالد هو الضمير والوجدان — موطن كل عقيدة لا العقيدة الدينية وحدها — وأقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة ، وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس . وما الذهن فى هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة ؛ وليس هو على أية حال أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها طريقاً .

« وبعض الناس يكبرون من قيمة هذا الذهن فى هذه الأيام ، بعدما فتن الناس بآثار الذهن فى المخترعات والمصنوعات والكشوف ، وبعض البسطاء من أهل الدين تبهره هذه الفتنة فيؤمن بها ، ويحاول أن يدعم الدين بتطبيق نظرياته على قواعد المنطق الذهنى ، أو التجريب العلمى !

« إن هؤلاء — فى اعتقادى — يرفعون الذهن إلى آفاق غير آفاقه . فالذهن الإنسانى خليق بأن يدع للمجهول حسته ، وأن يحسب له حسابه . لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية . ولكن يدعو إليه اتساع الآفاق النفسية ، وتفتح منافذ المعرفة . « فالمعقول » فى عالم الذهن ، أو « المحسوس » فى تجارب العلم ، ليس هو كل « المعروف » فى عالم النفس . وما الفكر الإنسانى — لا الذهن وحده — إلا كوة واحدة من كوى النفس الكثيرة ؛ ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ ، إلا وفى نفسه ضيق ، وفى قواه انحسار ، لا يصلح بهما للحكم فى هذه الشؤون الكبار .

« فلندع الذهن يدبر أمر الحياة اليومية الواقعة ، أو يتناول من المسائل ما هو بسبب من هذه الحياة . فأما العقيدة ، فهى فى برجها العالى هناك ، لا يرقى إليه إلا من يسلك سبيل البداهة ، ويهتدى بهدى البصيرة ، ويفتح حسه وقلبه لتلقى الأصداء والأضواء .

« ولقد آمن بالبداهة والبصيرة — وما زال يؤمن — العدد الأكبر من المؤمنين بكل دين وعقيدة فى الوجود ؛ ولقد ظل علماء الكلام فى الإسلام قروناً كثيرة ، يبدئون ويعيدون فى الجدل الذهنى حول مباحث التوحيد ، فلم يبلغوا بذلك شيئاً مما بلغه المنطق القرآنى فى بضع سنين » ...

٣ — « لقد عمد القرآن دائماً إلى لمس البداهة ، وإيقاظ

الإحساس ، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة ، ويتخطاها إلى الوجدان . وكانت مادته هى المشاهد المحسوسة ، والحوادث المنظورة ؛ أو المشاهد المشخَّصة والصائر المصوَّرة . كما كانت مادته هى الحقائق البديهية الخالدة ، التى تتفتح لها البصيرة المستنيرة ، وتدركها الفطرة المستقيمة »

٤ — « كانت المشكلة الأولى التى واجهها الإسلام — كما قلنا — هى مشكلة التوحيد مع جماعة تنكر هذا التوحيد أشد الإنكار ، وتعده إحدى الأعاجيب الكبار . فلننظر كيف حاجّهم فى هذه القضية المعقدة :

« لقد تناولها ببساطة ويسر ، وخاطب البداهة والبصيرة ، بلا تعقيد كلامى ولا جدل ذهنى : (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشِرون ؛ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصِفُون ؛ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى . بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)

أو : (ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه إلـه . إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض)

« هكذا فى بساطة البداهة التى لا ترى فى السموات والأرض فسادا ، إنما ترى نظاماً محكما ، لا يكون إلا حين يكون المدبر واحداً قادراً عالماً حكيما .

« وهذه الصورة التى يخيلها — لو كان هناك آلهة — « إذن لذهب كل إلـه بما خلق » وإنها لصورة مضحكة : أن ينحاز كل فريق من المخلوقات إلى إلـه ، وأن يأخـذ كل إلـه مخلوقاته ويذهب . إلى أين ؟ لا ندرى ! ولكننا نتخيل هذه الصورة فنضحك من فكرة تعدد الآلهة إذا كانت نتيجتها هى هذه النتيجة ! »

وهكذا وهكـذا إلى آخر ما ضربت من الأمثلة ، على سائر ما واجه الإسلام من مشاكل العقيدة ، وطريقته فى مواجهتها ...

* * *

أما الأستاذ عبد المنعم فيناقش المسألة على النحو التالى ، الذى تثبته فقرات من مقاله ننقلها هنا :

١ — « كل ما فى القرآن من « منطق ، الوجدان فى إثبات عقيدة التوحيد أنه ساق القضايا العقلية بتعبير جميل أخاذ حرك به الوجدان والمشاعر مع تحريك الذهن والحكم لصلب كل قضية ، ولم يسقها بأسلوب جاف كأسلوب المناطقة الرياضيين الذى تتزاحم فيه المعانى فى ألفاظ ضيقة . وأى كلام اعتمد على « الحقائق البديهية الخالدة » وعلى مقدمات ونتائج صحيحة ، سواء أكانت محسوسة ومنظورة أم غير محسوسة ومنظورة ، فهو منطق ذهنى . فإذا جمع إلى صحة المقدمات والنتائج جمال التعبير وروعة الأسلوب وإشراق الطلعة فهو منطق « وجدانى » كذلك . منطق الوجدان — وإطلاق « المنطق » هنا تجوز فى التعبير — هو الذى يتأثر بالخطابيات والشعر والموسيقى وغير أولئك من ألوان الفن التى لا تعتمد على الحقائق الثابتة و « ونقط الارتكاز الواضحة فى عالم البداهة و « الحكم العقلى » . والتأثر بهـذا المنطق تأثر وقتى لا يترك رواسب فى الذهن ، ومقاييس تملأ اليد ، يستطيع الفكر أن يتحاكم إليها ، ولأنها ألوان وظلال ونغمات وأعراض غير ملازمة تنفعل لها النفس انفعال الانقباض أو الانبساط وقتا ، ثم يزول تسلطها عليها .

« وليست هـذه الأعراض هى طريق إقرار « العقائد » ودعائم الفكر والحياة عند الراصدين المتيقظين الواعين : وخصوصاً الدعامة الأولى ، والقضية الكبرى ، قضية « التوحيد » التى هى قضية الكون كله وأعظم شئونه ! إن الوجدانيات من الخطابيات والشعر والموسيقى وسائل إقناع وقتى للبسطاء ، وليست وسائل يقين ثابت للذين يبحثون لعقولهم عن عواصم تستند إليها من طوفان الأهواء والنوازع والوجدانات المتقلبة ... وما كان للقرآن وهو يتصدى لإثبات القضية الكبرى أن يعتمد على « المنطق » الوجدانى . وإنى أرى الذهن فى إثبات العقائد وخصوصاً « التوحيد ، هو أوسع المنافذ وأصدقها وأدقها »

٢ « قلنا إن مسألة المسائل التى دار عليها أكثر جدل القرآن هى عقيدة التوحيد . وأنسب الآيات التى تناولت هذا الموضوع هى آيات سورة الأنبياء ، وقد ساقها المؤلف كدليل على ما ذهب إليه ، فلنقرأها معاً (وذكر نص الآيات المذكورة هنا فى هذا المقال) ثم قال :

« فهل ترى هذه الآيات تركت حجة « ذهنية » يمكن إيرادها للكر على مزاعم القوم ثم لم تفعل ؟ « أم اتخذوا آلهة

من الأرض هم ينشرون » فالإله هو وحده الذى يخلق ويحيى وينشر الخلائق من الأرض ، فهذا مقطع من مقاطع الاستدلال بكلمة واحدة يدور بها الذهن فى استعراض سريع للأرض وكائناتها للبحث عن حى مخلوق واحد لغير الله فلا يجد . وإنه للدليل الاستقرائى بعينه ! ذلك الذى بنى عليه (بيكون) الفلسفة الاستقرائية الحديثة . وإنه للدليل المفضل عند المربين وعلماء النفس»

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، وهذا مقطع آخر من مقاطع الاستدلال فى كلمة واحدة أيضاً... وإنه للدليل التطبيقى بعينه ! أحد ضروب الأدلة الكبرى ، يطبق فيه العقل فى ظروفه المتسعة ، ما يدركه من لوازم تعدد الرياسات وفساد الأمور إذا تولتها أيد متعددة سيكون بينها بالطبع ما يكون بين المتعددين ، ولا يمنع خلافهم وتحاسدهم أنهم آلهة فى طباع مختلفة عن الآدميين . فإن التصور البشرى لا يستطيع أن يجرد الآلهة من صفات الناس لأنه لا يملك غير منطقه فهو معذور ! »

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ! ذلك موقف وجدانى فيه انفعال وتقزز من تلك الدعوى ، وتنزيه لله عما وراءها من أزمات ومحرجات . وهو موقف معترض للاسراع بالتنزيه تعود الآيات بعده إلى الاستدلال : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » وهذا مقطع آخر فيه ضرب عظيم من ضروب الاستدلال هو الدليل العملى الواقعى ، وهو كذلك أحد ضروب الأدلة الكبرى ، وله فى الفلسفة العصرية المقام الأول ، إذ به تسير الحياة العملية ، وهو محور الاجتماع ...

« فما دام الواقع أن جميع الآلهة المزعومة مَلَك الناسُ أن يواجهوها بالمسئولية والمحاكمة ، فلا يصح أن تكون آلهة مادامت تقع عليها الدينونة ... ولكن الذى خلق السموات والأرض ، لا يملك عابد له أن يرفع عينه إليه بمسئولية ، بل ليس له إلا التسليم والإذعان ما دام عاجزاً عن الهرب من أقطار السموات والأرض »

« أم اتخذوا من دونه آلهة ... قل هاتوا برهانكم ! » ... « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » وهذا مقطع عظيم أيضاً من مقاطع الاستدلال هو ما يسمونه « الدليل التاريخى » إذ أن التاريخ لم يثبت حياة رسول جاء قومه بغير الوحدانية ... إذا فقد سد القرآن مجالات القول والاستدلال أمام المشركين حتى أثبت أنهم لا يستندون فى دعواهم إلى أى حق ، وإنما إلى التكبر والجهل والإعراض . وكان هذا الختام « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » نتيجة منطقية ذهنية واضحة لمقدمات واضحة أخذت بضروب الأدلة جميعاً ولم تترك مفراً لجدل مجادل »

* * *

١ — وبعد : فلا بد أن يكون القارئ قد لاحظ اختلافاً فى تعريف « المنطق الوجدانى » حسبما بسطته وعنيته ، والتعريف الذى يضعه له الأستاذ عبد المنعم ليبنى عليه اعتراضاته . ولا شك أننى غير ملزم بتعريف الأستاذ ، فأنا لم أترك الاصطلاح الذى وضعته بلا شرح معين ، وعلى هذا الأساس يجب أن تدور المناقشة .

فهو يعرفه بأنه « الذى يتأثر بالخطابيات والشعر والموسيقى وغير أولئك من ألوان الفن التى لا تعتمد على الحقائق الثابتة ونقط الارتكاز الواضحة فى عالم البداهة والحكم العقلى » .

بينما أنا قد أسلفت أنه يعتمد — فيما يعتمد عليه — على الحقائق البديهية الخالدة ، التى تتفتح لها البصيرة المستنيرة وتدركها الفطرة المستقيمة . كما كررت أنه يلمس البداهة ويوقظ الحس ، ليتصل منهما بالضمير وبالوجدان .

فالأستاذ عبد المنعم يرتب مثالبه كلها للمنطق الوجدانى على أساس صورة خاصة فى تعريفه لهذا المنطق غير التى عنيتها بوضوح . ولست أنا المسئول طبعاً عن ترتيب الأمور على هذا النحو الذى يبدو واضحاً عند الموازنة بين ما قلت هنا وما قال !

على أننى أحب أن أقول له هنا : إن الشعر والموسيقى والفنون ليست خواء كلها من الحقائق الخالدة — كما يصورها — ولو خلت من هذه الحقائق ما عاشت وما حسبت فناً صادقاً ، فنحن فى حاجة إلى أن توسع آفاقنا عند النظر للفن الصادق ، فنجده يلتقى فى النفس بينابيع العقيدة على نحو من الأنحاء ، وإلا كان فناً مزيفاً لا يعيش ، وزخرفاً ظاهراً تزيفه الحياة

٢ — وأما الاستدلال المنطقى كما أورده فى الآيات ، فأحب أن أقول عنه : إن القرآن كان أعرف بالنفس البشرية من الأستاذ عبد المنعم ، فلم يسق الأدلة كما ساقها هو ، وإلا لكانت منافية من وجهة للمنطق الذهنى نفسه . فهى فى سياق القرآن شىء يتصل

بالفطرة على استقامتها ، فترفض الأوجه المنطقية الزائفة ، وتؤمن بالوجه الواحد الصحيح منها إيمان اقتناع وتسليم ، وهى فى سياق الأستاذ عبد المنعم محاولات ذهنية لا تستقيم على الجدل كما يأتى :

(ا) يقول الأستاذ عن مقطع الآية الأول : « فالإله الواحد هو وحده الذى يخلق ويحيى وينشر الخلائق من الأرض . الخ » أفلا يعلم أن قضية البعث كانت من القضايا الكبرى التى تولى القرآن إثباتها لهؤلاء القوم . فكيف يجعل منها دليلا على وحدانية الله هنا — ولو كان منطق الذهن الجدلى هو المحكّم — بينما هى نفسها موضع جدل طويل ، وليست لإحداها سابقة على الأخرى بل هما مظهران لقضية واحدة تثبت بطرفيها ، أو تنهافت بطرفيها.

(ب) ويقول عن فساد الأرض لو تعدد الآلهة : « فإن التصور البشرى لا يستطيع أن يجرد الآلهة من صفات الناس لأنه لا يملك غير منطقه هو فهو معذور » ... أفلا يعلم أن القرآن ذاته قد كلف التصور البشرى أن يؤمن بأن الله « ليس كمثله شيء » ! فكيف كان يكلفه هذا لو لم يكن فى طاقة الإنسان أن يتصوره بوسيلة من الوسائل ، وإنه ليؤمن بهذا لا عن طريق المنطق الذهنى ، ولكن بالبداهة ، وبالصلة الخفية بين الإنسان المحدود والإله غير المحدود . تلك الصلة التى يعتمد القرآن على إيقاظها فى الحس كالومض السريع فيؤمن المؤمن ويستريح ! ولو عهد بها إلى الذهن لما استطاع تصورها كما يعترف الأستاذ عبد المنعم .

(ج) وعن مسئولية الآلهة . أفلا يرى الأستاذ أن كلامه لا يثبت شيئاً ولا ينفيه ، فمسئولية الآلهة أمام عبادها هى مسئولية نظرية من جانب واحد ، لا تحفل بها الآلهة ولا تجيب سائليها . وكثير من الناس يحاكم الله مثلها — والله تعالى عنها — ولم يذكرها القرآن للجدل هنا . ولكن ذكرها للتقرير والتأثير الوجدانى بهذا التقرير .

(د) ثم الدليل التاريخى كما يراه فى « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » فلو سرنا فى الاستدلال على طريقة الأستاذ عبد المنعم لقلنا : إن هؤلاء القوم لم يؤمنوا لا بهذا الذكر ولا بذكر من قبله . فكيف يحاسبون بما لم يؤمنوا به ، وهو نفسه موضع الجدل ؟

* * *

إن القرآن ياسيدى لم يرد الأمر على النحو الذى تريد ... وإنه لأفطن للنفس البشرية وأعرف بدروبها ومسالكها ، وإنه ليأتى هذه النفس من منافذها الواسعة جميعاً ، لا من كوة الذهن المحدود وحدها هذا ، الذهن الذى يعجز عن تصور صفات الإله لو عهد بها إليه ! وإن فى كل نفس بشرية — ما لم تفسد فطرتها — لمنافذ ومسارب تصلها بالحقيقة الأزلية الكبرى ، والأديان وحدها هى التى تلتفت لهذه المنافذ والمسارب جميعاً ، فتصل الناس بالخالق فى يسر جميل ، معتمدة على البداهة والبصيرة والحس والوجدان وسائر القوى الإنسانية ومن بينها الذهن الذى هو إحدى هذه القوى وبعدها جميعا فلا نكبر من قيمة هذا الذهن المحدود ، ولا نتجاوز به الحدود ... والسلام :

سيد قطب

ظهر حديثاً كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً